قضية الزنوجة وسؤال الأنساق الثقافية في النص الرو ائي الجز ائري المعاصر

رو اية "الزنجية" لعائشة بنور أنموذجا

The Case of Negroism and The Cultural Patterns in Modern Algerian Narratve Text
The Novel of: " The Negro " by Aisha Bennour as a sample

ط. د نعيمة بلي [1]

تاريخ الإرسال: 28-12-2023	تاريخ القبول:08-05-2024	تاريخ النشر:ديسمبر20247

الملخص:

انفتحت الرواية الجزائرية المعاصرة على موضوعات مختلفة، فانزاحت عن الرؤية السردية الكلاسيكية وطرق الموضوعات المحلية، لتعانق تعددية سردية وتحاور مختلف الثقافات والشعوب في قارات أخرى كأوروبا وإفريقيا، هذا الانفتاح سمح للنص الروائي الجزائري المعاصر بطرق تيمات جديدة للمشاركة في لعبة السرد، ومنها تيمة "الزنوجة" بما تحمله من أنساق ثقافية متفردة أسهمت في إثراء النصوص الإبداعية وولوج متاهات التخييل. تأسيسا على هذا الطرح يهدف هذا البحث إلى الكشف عن بعض الأنساق الثقافية في الرواية الإفريقية، تحديدا في رواية "الزنجية" للروائية الجزائرية المعاصرة "عائشة بنور"، حيث سنسعى إلى الكشف عن عوالم هذا النص الإفريقي الزنجي، وما يحمله من أبعاد دلالية وحمولات ثقافية.

الكلمات المفتاحية: الأنساق، الثقافة، الزنوجة، أفريقيا، الجزائر.

Abstract:

The Modern Algerian novel as opened up to different themes. It has moved away from classical narration to embrace newly narrative multiplicity. It has interviewed different cultures and people from Europe and Africa. This openess allowed the Algerian modern narrative text to use new themes including the theme of "Negroism". With hits unique cultural patterns, it contributed to enriching creative texts and entering the imagination maze, so this research, we will seek to reveal the cultural patterns in African Negro text spicifically Aisha Bennour's novel "Negro".

***Key words**:* Patterns, culture, negress, Africa, Algeria.

*** *** ***

المؤلف المرسل: ط. د نعيمة بلي naima.belli@univ-jijel.dz

[1] كلية الآداب واللغات جامعة محمد الصديق بن يحي- جيجل (18000) naima.belli@univ-jijel.dz

مقدمة:

الرواية فن قولي الهدف منه بث رسائل إنسانية لدى القارئ الواعي، وليس شيئا اعتباطيا أو زائدا أو ضربا من ضروب الترفيه فقط، ذلك أن بعض الروايات العالمية المشهورة الممتدة في الزمن، استطاعت أن تعالج قضايا الوجود الإنساني، وهي قابلة للتطور ومواكبة التغيرات الحاصلة على مستوى العالم، ولها القدرة على ابتلاع القضايا المعقدة والشائكة، الفكرية والسياسية والاقتصادية والدينية، وذلك عبر مختلف الحقب التاريخية، وقد رأينا أمثلة كثيرة من الروايات التي كتبها أشهر الروائيين في العالم الغربي والعربي على السواء، كما لم تكن الرواية الجزائرية بمعزل عن هذا المضمار السردي، فقد مرت الرواية الجزائرية منذ نشأتها بمراحل عديدة وذلك رغم تأخرها عن نظيرتها الغربية والعربية، نظرا لظروف تاريخية ترجع إلى الحقبة الكولونيالية، وبعد هذه المرحلة تطورت وعرفت عدة أنواع من الرؤى الايديولوجية والتوجهات السياسية وكذا الأبعاد الثقافية، فانفتحت في شكلها المعاصر على موضوعات وأجناس مختلفة عنها، وانزاحت بذلك عن الرؤية السردية الكلاسيكية وحتى طرق الموضوعات المحلية، لتعانق تعددية سردية وتحاور مختلف الثقافات والشعوب في قارات أخرى كأوروبا وإفريقيا، نتيجة لهذا الانفتاح انفرد النص الروائي الجزائري المعاصر بتيمات جديدة للمشاركة في لعبة السرد، بما تحمله من أنساق ثقافية متفردة أسهمت في إثراء النصوص الإبداعية وولوج متاهات التخييل. تأسيسا على هذا الطرح نتساءل:

ما هي تمظهرات الأنساق الثقافية في رواية الزنجية للروائية الجزائرية المعاصرة عائشة بنور؟.

ومن الإشكالية المطروحة تولدت لدينا عدة تساؤلات منها:

ما هو مفهوم النسق الثقافي؟ كيف تجلت مختلف الحمولات الثقافية في رواية الزنجية؟ ما هي تمثلات الزنوجة في الرواية؟.

إن الإجابة على هذه الإشكالية تتطلب تبسيطا لمفهوم النسق الثقافي، ثم كشف مختلف تجلياته في النص الروائي.

1-مفهوم النسق الثقافي:

تلقفت النص الأدبي العديد من الرؤى والمناهج النقدية، التي أخذت على عاتقها متابعة هذه النصوص بما تحمله من زخم معرفي، مهمتة الكشف عن الظاهر منه والمضمر، وهذه الإجراءات تكفلت بها المناهج المعاصرة _ما بعد البنيوية_ التي أنقذت النص من عزلته، وأعادت له علاقاته بالمجالات الأخرى التي يستقي منها الأدب موضوعاته، وعلى هذا الأساس تجلت لدينا مناهج اهتمت بالجانب الثقافي في النصوص الروائية، وبحثت في مختلف أنساقه الثقافية، وقد أخذ النسق الثقافي عدة مفاهيم وأبعاد وتجليات.

1-1-النسق لغة:

ويعرف النسق لغة: "النسق من كل شيء ما كان على نظام واحد عام في الأشياء، وقد نسقته تنسيقا، ويخفف لابن سيده، نسق الشيء: ينسقه نسقا، ونسق نظمه على السواء، وانتسق هو وتناسق، والاسم النسق، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض: أي تنسقت"[i]. وهذا يعني أن النسق هو النظام العام للأشياء، سواء كانت مادية أو معنوية.

1-2- النسق اصطلاحا:

أما اصطلاحا: فالنسق لم يعرف تعريفا واحدا متفقا عليه من طرف النقاد، ويعرف النسق أنه: "ما يتولد عن تدرج الجزئيات في سياق ما، أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية، إلا أن هذه الحركة نظاما معينا يمكن ملاحظته وكشفه"[ii]. نفهم من هذا التعريف أن النسق كل مركب من أجزاء بينها علاقات تنتظم وفق طريقة معينة.

وفي تعريف النسق الثقافي نجد أنه: "يدل على تاريخ الثقافة والأدب والفكر الاجتماعي بصورة عامة"[iii]. أي يكون النص محمّلا بموضوعات خارجية؛ ثقافية وفكرية واجتماعية وغيرها، وهو أيضا "مواضعة اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيقية ... تفرضها في لحظة معينة من منظور الوضعية الاجتماعية التي تقبلها المؤلف وجمهوره"[iv]. ويمكن القول أن النسق الثقافي يتشكل داخل النص الروائي في إطار بيئته التي ينتمي إليها، مما يستدعي قراءة خارج نصية تروم التفكيك وإعادة البناء.

2-تمظهرات الأنساق الثقافية في المتن الرو ائي:

إن رواية "الزنجية" حبلى بأنساق فكرية وثقافية واجتماعية شتى، صوّرت المجتمع الإفريقي عبر طرق عدّة موضوعات، لذا تخللتها أنساق من قبيل: الزنوجة، والعادات، والهجرة، والمكان، والكثير من الأنساق الأخرى والتي سنختار بعضها وليس كلها.

2-1-نسق الزنوجة:

لطالما عاشت مجتمعات كثيرة على الهامش، نظرا لخصوصية بنيتها السوسيوثقافية، فغالبا ما نجدها هشّة ثقافيا ودينيا واقتصاديا كما مضطربة سياسيا، إلا أن الدراسات والمناهج المعاصرة اعتنت بالمهمش والمسكوت عنه، ونقضت المركز الغربي وما ينتج حوله من نصوص، ولعل من أبرز التيمات التي سيطرت على النصوص والدراسات هي الزنوجة، أو الإنسان الزنجي وكل ما يتصل بحياته وثقافته، ويعرف "فرانز فانون" الزنوجة على أنها: "تمثل سعي مثقفي البلاد التي تعرضت إلى الاستعمار الغربي بكل شراسته إلى ثقافتهم الوطنية لاستعادتها حتى لو تضمن ذلك ربطها بمهاد عرقي أو أسطوري، وهو رد منطقي لسياسة إحلال الثقافة الأوروبية بديلا عن الثقافة المحلية"[v]. والزنوجة عند "ليوبولد سنغور": "فضاء تتجمع فيه القيم الثقافية للعالم الأسود وتنهض إنسانوية أو نزعة جديدة"[vi]. ولعل المدونة المختارة تتجلّى فيها الكثير من مفاهيم الزنوجة.

في رواية "الزنجية" اختارت الروائية أن تعنونها بهذا العنوان لتضع القارئ داخل النص وبنيته العميقة، ذلك أن العنوان عتبة نصية خارجية تحيل على الأنساق المختلفة التي ينطوي عليها النص الروائي، كما "يعد العنوان نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة، فالعنوان بالنسبة للسيميولوجي بمثابة بؤرة ونواة للنص، فهو يمنحه الحياة والروح والمعنى النابض"[vii]. وعنوان "الزنجية" مارس علينا كقراء نوعا من الإغراء لولوج عوالم ودلالات المتن الروائي.

حيث ألفينا نسقا ثقافيا يفضي بمفهوم الزنوجة لدى شخوص الرواية، وقد لجأت الكاتبة إلى إثراء مدونتها بمقولة الرئيس السنغالي والشاعر "ليوبولد سيدار سنغور" التي تجسّد هوية الإنسان الأسود، تقول: "في السابق كان الإنسان بداخلي يتكلم باسم الجماعة، أما اليوم، فالإنسان بداخلي يتكلم باسم الأنا، ويردد: لأنك سوداء، أنت جميلة"[viii]. فالبطلة بلانكا لم تجد ما يميّزها عن غيرها، وما يعزّيها في ألمها سوى فكرة تفرّدها بزنجيتها، التي مثّلت الملجأ من الأحزان والخيبات التي تعيشها.

كما تدرج الروائية مقاطع من الشعر الزنجي لسنغور، حول المرأة الإفريقية، تقول: "...ربما أدركت بعد تجربتي المريرة، أنني امراة سوداء، تردّد وجعها في صمت وبكبرياء:

يا امرأة عارية يا امراة سوداء

تكتسين لونك الذي هو الحياة، وتقاطيعك التي هي الجمال ...

في كنف ظلك كبرت، ونعومة يديك كانت تعصب عيني

وها أنا ذا في قلب الصيف والجنوب

اكتشفك، من علياء قمة محترقة، أرضا موعودة"[ix].

تروم الروائية من خلال الزجّ بنسق ثقافي في النص الروائي، إلى تعميق البعد الهوياتي للإنسان الإفريقي، الفرد الأسود الذي ظل مهمّشا في الواقع وفي الأعمال الفنية، وإذا حدث وصوّره الفن فيكون لأغراض استعمارية دعائية وخدمة للمركزية الغربية، أما هذه الأعمال الروائية المعاصرة الإفريقية منها خاصة، فقد أزاحت اللثام وأبادت الحواجز بين العوالم الإنسانية، فعبّرت عن كينونة الفرد الأسود وشجعته على تقدير ذاته وتميّزه عن الآخر، تقول "عائشة بنور": "لا أعرف لماذا يسكنني وجع ذاك الفتى الأسود الذي لاحقه مثلي بؤس اليتم، وفقر بيوت القش، والبطون الخاوية، فتلوّن الغروب والشروق عنده بالوجع وتكبّد ألم إفريقيا، ولوّنها بلون أحاسيسه المتعبة والحزينة، وربما كنت مثله في قلب هذه المدينة أشعر بالكبرياء، وبصوت أجش أردّد:

قلها لا تجبن .. لا تجبن

قلها في وجه البشرية ..

أنا زنجي .. وأبي زنجي الجدّ وأمّي زنجية ..

أنا أسود .. أسود لكني حرّ أمتلك الحرية .. أرضي إفريقية ... !"[x].

وهذا الشعر للشاعر السوداني "محمّد الفيتوري"، الذي يعدّ بطاقة هوية للفرد الزنجي الإفريقي لجأت الروائية إلى الاستشهاد به، ليس من قبيل الترف الفكري والثقافي، إنما هو توظيف واع لكل ما يدلّ على هوية الإفريقي. وقد مثّلت الرواية بحق شريط حياة الفرد الأسود منذ طفولته حتى مراحل متقدمة من حياته، عن طريق تصوير حياة البطلة "بلانكا"، حيث زخرت الرواية بأنساق أخرى متعلقة بالمرأة الإفريقية والعادات التي تتحكم في حياتها.

2-2-نسق العادات:

لا يخلو أي مجتمع من عادات وتقاليد، تطبعه وتميّزه عن غيره من البلدان الأخرى، ويلجأ المبدعون إلى الزج بهذه العادات في نصوصهم، سواء كان هذا التوظيف جماليا، أو توظيفا واعيا لمعالجة دورها وتأثيرها في المجتمع، مثل ما تمثّلته العادات والتقاليد في رواية "الزنجية"، فقد عالجت عادة "ختان البنات" لإبراز تأثيرها الخطير على الجسد والنفس والعقل كما على هوية المرأة.

تبدأ الروائية بضمير الأنا وعلى لسان بطلة الرواية "بلانكا"، في وصف صعوبة الحياة في الحيّز الجغرافي الذي تعيش فيه، وسرد معاناة الرجل في الحصول على عمل في ظل مستوى الفقر المدقع، إلى جانب معاناة المرأة مع الولادة وموت الأطفال، من جراء المرض والجوع والجفاف.

ثم تلج صلب الموضوع الذي تعالجه الرواية، وهو عادة ختان البنات في إفريقيا، مع ما يصاحبه من ألم وحزن دفين وقعه على الأنفس والأجساد عظيم، تقول: "في أعماقي، كنت أدرك أن كل النساء هنا في النيجر يشعرن بالتعاسة والقهر مثلي تماما. تعاسة تنمو رويدا رويدا مع نمو أجسادهن الصغيرة، وفي الانتظار شفرة السكين لتكتم صرخاتهن"[xi].

وتستمر البطلة في الاكتفاء، بالإشارة إلى موضوع ختان البنات، إلى أن تصل إلى منتصف الرواية، حين تصف حالتها بعد الزواج والولادة، تقول: "مرّت سنوات قليلة على زواجي من فريكي ونسيت أو حاولت أن أنسى جراحي، وأنجبت صغيرتنا إفريقيا، وعانيت ما عانيت من آلام الولادة التي كادت أن تودي بحياتي، بسبب مضاعفات ختاني"[xii]. فرغم أن البطلة كبرت وتزوجت وأصبحت أما، إلا أنها لازالت تعاني من تأثير عملية الختان على جسدها ونفسيتها، وحتى علاقتها مع زوجها والمحيط الذي تعيش فيه.

2-3-نسق الأنا والآخر:

تعدّ قضية الأنا والآخر من أقدم قضايا الفكر الإنساني، وقد تبلورت تجلياتها في علوم كثيرة، منها علم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع ولم يكن الفن والأدب بمعزل عن التعبير عن هذه القضية، بطريقة جمالية فنية، يشعر معها القارئ بالإبداع والتخييل، خاصة في الأعمال الروائية، إذ لجأ الروائيون إلى الاستعانة بالآخر لاكتشاف الذات، وذلك لا يتأتى إلا في ظل عمليات التفاعل بين الأنا والآخر، كما يتولد عنه سؤال الهوية، والذي هو غير منفصل عن مفهوم الغيرية، فمعرف الذات لا تتجلى إلا في إطار وجود الآخر.

ولعلّ حضور نسق الزنوجة في الرواية، يترتب عليه حضورا لنسق آخر، ذات صلة بالهوية والغيرية، أو علاقة الأنا/الزنجي بالآخر المختلف عنه عرقيا، لغويا، دينيا، وثقافيا، وقد تجلّى هذا النسق عندما أبرزت الروائية علاقة البطلة "بلانكا" و"فريكي" بالآخر، بشكل خاص عندما هاجرا من بلدهما، فتواصلهما مع شخوص أخرى من غير حيزهما الجغرافي الذي ينتميان إليه، جعلهما يدركان موقعهما من العالم، ومعرفة ذاتيهما، ونلاحظ في القطعة السردية تلك النظرة الدونية للآخر/الزنجي، وهي محاولة لنقض المركز وإعادة إثبات الذات، تقول: "... وحاولنا أن ننصهر في مجتمعات غريبة عنّا، بكل كينونتها الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية، لكن لا جدوى من ذلك، فلوننا الأسود يمنعنا من الاندماج، فقد كنّا نشعر بذلك من خلال نظرات الازدراء التي كانت تلاحقنا، وتحدث في نفوسنا ألما عميقا"[xiii].

وفي هذا المقطع اعتراف ضمني من الشخوص الزنجية، بعدم جدوى مقولة الحوار الحضاري، الذي يدّعيه الغرب، بل ما يحكم علاقة الإنسان بالآخر هو الصراع وعقدة المركزية، ولذا نجد البطلة تفصح عن رؤيتها بشكل مباشر، "حينها أحسست أن البيوت تفتح أبوابها وشعرت بارتباطي بالمكان، ثم غفت عيناي، وأنا أحلم في هذه الليلة الباردة بالمدينة الجديدة التي أبحث عنها، وفوق ربوة تطل على المدينة، قررت ومجموعة من الشباب والنساء المهاجرين إما أن يكون لنا مجتمعنا الذي ننضوي داخله، أو نندمج في هذا المجتمع الجديد، وإذا بصوت بلانكا، وكأنها تحذّرني قائلة: -دون أن ننصهر فيه؟"[xiv].

لا غرابة أن تتجلّى رؤية الروائية من خلال صوت البطلة بلانكا، وهي رؤية أيديولوجية تشابه ما ذهب إليه الروائيون في السرد ما بعد الكولونيالي، حيث لجئوا إلى نقض المركز وتسليط الضوء على هوية الشعوب المهمشة، عن طريق معرفة الذات وتحقيقها، فقولها "دون أن ننصهر فيه" يدلّ على رغبة البطلة في الحفاظ على كينونتها كامرأة زنجية في مجتمع جديد.

2-4-نسق الهجرة غير الشرعية:

تعالج الرواية موضوع الهجرة غير الشرعية للأفارقة، والذي تتظافر عدّة عوامل في تشكيله، منها عدم الاستقرار السياسي والحروب الأهلية في هذه البلدان، إلى جانب سبب مهم وهو الفقر وتدني مستوى المعيشة، فرغبة الإنسان الإفريقي في مستوى معيشي أحسن جعله يفكر في مغادرة حيّزه الجغرافي، دون أن يفكر في عواقب هذا الفعل غير المدروس والمبني على الصدف والمجهول، "نغادر إلى دول الخليج العربي كمكتسبين لجنسياتها أو عاملين فيها، أو دول الغرب كهاربين أو متخفين من المطاردة !. نركب قوارب البحر من أجل حياة أفضل، ودون ذلك قحط وفقر وإرهاب وحروب ودمار"[xv].

من خلال هذه الأسطر نلمس ذلك الاختلاف في نظرة الآخر للإفريقي ففي دول الخليج يكون له الحق في العيش بكرامة أكثر من دول الغرب، التي تحتقر وتنظر إليهم نظرة دونية، بسبب عقدة المركزية بينما الآخر تابع لهم، وهو من الرؤى التي ساهمت في تعميقه الحقبة الكولونيالية بنتائجها المدمرة للقيم الإنسانية، وربما هذا هو السبب الذي جعل "فريكي" يتراجع عن فكرة الهجرة إلى أوروبا، واكتفى بالدول العربية التي لا يضطهد فيها الإنسان الأسود، ربما بسبب تعاليم الدين الإسلامي أو لأن العرب أيضا منهم السود، ولا فرق بينهم وبين أبيض، "كان فريكي ينوي العيش في بلاد عربية، لم يفكر كأبناء قبيلته في الهروب نحو بلاد الشعر الأصفر، لأنه في قرارة نفسه لا يميل إلى ذلك، وهو ذو اللون الأسود، ومن تلك النعوت التي ترافقه كلّما نظر إليه أحد منهم، قائلا له: هاي النيقرو أو الكحلوش. تشعره بالدونية والانتقاص من كرامته وإنسانيته"[xvi].

لا يتوانى شخوص الرواية في وصف مختلف الأحداث والمخاطر التي تواجههم عند هجرتهم، ومعاناتهم مع قطاع الطرق ونقاط التفتيش والجماعات المسلحة، فهم معرضون للموت والاختطاف في أي لحظة، ناهيك عن إصابتهم بالأمراض وإحساسهم الدائم بالجوع والتعب والاغتراب وكل أنواع الألم الجسدي والنفسي.

ونجد أن البطلة "بلانكا" تشعر بالاغتراب الروحي والجسدي، لأنها انفصلت عن مكانها الذي تنتمي إليه، "أعود لنفسي، أن ما كنت أحسه هنا هو غربة الروح والجسد، في حيزي، كنت أشعر فقط بغربة الروح، أما الآن، وفي هذا الحيز الكبير، خارجه كداخله أو ربما داخله أكبر من خارجه، مفتوح على نمط أرفضه وبقوة، ففيه أشعر بغربة الروح والجسد معا"[xvii]. وهذا الشعور بالاغتراب النفسي إلى جانب الجسدي، ناجم عن معاناة "بلانكا" مع ذاتها كامرأة إفريقية سوداء، عانت من سطوة التقاليد البالية في موطنها، وقساوة الحياة التي أدت إلى انسلاخها عن جسدها وهويتها.

2-5-نسق السياسة:

تكتب الروائية "عائشة بنور" هذه الرواية لتعالج عدّة قضايا جوهرية، وهي قضايا تتعلق بحياة الفرد الزنجي وما يدور حوله من اضطرابات وصراعات أيديولوجية واقتصادية وسياسية، والروائية إعلامية مطلعة على خبايا الدول المتقدمة، وتصف علاقاتها وسياستها اتجاه الشعوب المستضعفة، ذلك أن الحديث عن الأفارقة يستلزم وعيا وإحاطة بأوضاعهم المزرية التي

يعيشونها، رغم أن بلدانهم تحوز على الكثير من المؤهلات والثروات التي تخولهم العيش بكرامة، لكن هيهات أن يتحقق العدل في العالم، ومنذ الصفحات الأولى تصف حالة شخوص الرواية مع الوضع الاقتصادي المزري، وكذا تأثير التلوث على صحة هؤلاء، "آرليت مدينة المناجم، وأرض الذهب، أصبحت منطقة موبوءة، يلفها، كما قال فريكي كفن من الغبار المشع نوويا، وملايين الأطنان من هذه المخلفات تذروها رياح الصحراء، فتبعث في أنفاسنا رائحة الموت البطيء"[xviii].

بسبب السياسة الجائرة للحكام وتدخل الدول الأجنبية، أصبحت معظم الدول الإفريقية بؤرة للفقر والمرض والموت، رغم أن هذه البلدان تمتلك أكبر الثروات الطبيعية في العالم بل وأنذرها، في المقابل نرى شعوبها تعيش تهميشا بائسا، "نملك من الموارد الطبيعية والبشرية ما يجعلنا في مصاف الدول المتقدمة، لكن ...؟"[xix].

وهنا تحديدا تشير الروائية بشكل غير مباشر، إلى السبب الذي يجعل من الدول الإفريقية فقيرة رغم غناها الطبيعي، وتركت ثلاث نقاط الدالة على الحذف مع علامة استفهام، وهي دوال سيميائية تحيل على رغبتها في مشاركة القارئ في إنتاج الدلالة وتأويل المعنى، ولاشك أنها تفصح فيما بعد خاصة في الصفحات الأخيرة من الرواية، أن السبب وراء ذلك هو سياسة منتهجة من طرف الجماعات المسلحة، من أجل فرض السيطرة والاستفادة من مزايا مادية، "العالم يحترق، وتجار الحروب يلهثون خلفهم يظلون يسرقون التراب والأرواح، والمدن من بعدهم قد التحفت السواد"[xx]. وتقصد بتجار الحروب المنظمات الإرهابية، التي تعيث في الأرض فسادا ورعبا وموتا، وتتاجر بالأجساد والأرواح والنساء والأطفال.

2-6-نسق المكان:

لا تخلو أي رواية من تقنية المكان، وهو العنصر المنظم للعملية السردية، حيث تجري فيه الأحداث، وتنتظم فيه الشخوص الروائية وفق علاقات محددة، حسب ما يعنيه لها هذا المكان، "فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة...ولذا لا يصبح غطاءً خارجيا أو شيئا ثانويا، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني"[xxi]. ويتداخل المكان بدلالات النص العميقة، حيث يصبح جزءا مهما في تقعيد العملية السردية وتأثيث المشاهد الدرامية في الرواية، لذلك نجد أن المكان في رواية "الزنجية" نسق ونظام مهم له علاقة بهوية الشخصيات، يعبر عن انتمائها له أو انسلاخها عنه.

ولعل من أبرز الأماكن التي وظفت في الرواية هي ثنائية الصحراء والمدينة؛ ذلك أن الشخصيات تنتمي إلى فضاء الصحراء القاسي، يعانون فيه من الجفاف والفاقة، تقول "بلانكا": "هنا الطبيعة قاسية، وفي هذا المكان، ارتبطت ملامحي بأشياء أكثر قسوة، وأشدها حزنا"[xxii]. وتردف قائلة: "في هذا المكان الموحش والمقفر، الأفق الجميل اعترته غمامة صفراء وسوداء، ولم تعد الصحراء في نظري ذلك الجمال الساحر الذي يبهر السائح منذ الوهلة الأولى، ولا تلك الكثبان الرملية الذهبية التي تبدو تموجاتها كشعر حسناء طويل يتدلى خلف كتفيها"[xxiii].

هنا نلمس تلك العلاقة الوطيدة بين الشخصية والمكان، حيث يصبح له دلالات ومفاهيم وجودية، تتعلق بكينونة الشخصية، حيث يكون مكانا جغرافيا جامدا، ليس فيه من معاني الحياة شيء، "المكان، جغرافيا موجود، وبمفهوم الذات والحياة أعتبره غير موجود، هذا الفضاء الذي يكتنفه البوح والتذكّر تحوّل إلى شيء مبهم عندي، أسراره موغلة في عبق التاريخ..."[xxiv].

كما أن الرواية تحتوي على فضاء المدينة المناقض لفضاء الصحراء، وهو فضاء حلمي يمثل الملاذ بالنسبة للمهاجرين، يرونه الجنة والألفة والطمأنينة، "جميعهم يريدون عبور الصحراء، كي يصلوا إلى الضفة الأخرى، والتي قيل عنها مدينة الأحلام، أو جنة الفردوس ..."[xxv]. ولكن يحدث لهم خرقا لأفق التوقع، حيث لم يجدوا ما حلموا به عند انفصالهم عن حيزهم، بل وجدوا البرد والتشرد في الطرقات، يقول "فريكي": "حينما وصلت إلى مدينة البليدة مع عائلتي ونحن بأثواب رثّة، وأنا مهزوم في هذه المدينة بالجوع والبرد، وصمت السكون من حولي كالسم يسري في أوصالي، شعرت بألم كبير يحز في نفسي، وغربة موجعة تنهش دواخلي، وقلت في خاطري، وأنا أتأفف من البرد الذي ينخر عظامي: ها أنت يا فريكي في هذه المدينة الموعودة التي مكث بها صديقك دادامو، فمن أين ستبدأ مشوارك؟ !"[xxvi].

تحكم الإنسان علاقات روحية بالحيز الجغرافي الذي يعيش فيه، ويلعب التواصل الجسدي والروحي مع المكان دورا مهما في التعبير عنه ووصفه ونقل تصوراته، وبذلك تكون تلك الفضاءات إما معاشة أليفة أو تكون مستحيلة ومعادية، وفي هذا الخطاب الروائي المتخيل، تعيش الشخصيات صراعا هوياتيا مع المكان الذي تنتمي إليه، وانسلاخا عنه حيث لم تشعر فيه بالأمان والألفة، ولم تستطع حتى الاندماج في الفضاء الجديد.

تعدّ رواية "الزنجية" لصاحبتها الإعلامية "عائشة بنور"، بمثابة شريط إعلامي يصور حياة ورحلة الزنجي في عالم البؤس والشقاء، فعند قراءتنا للنص نشعر بمرارة وألم شخوصها الذين يعانون في صمت مطبق، حيث تكتبها المبدعة بلغة تنزف دما لا دموعا، وتصف بحسرة معاناة النساء والأطفال والرجال المضطهدين، وبحثهم عن أمل يرحل بهم إلى حياة أفضل، تحفظ فيها كرامة الإنسان بعيدا عن التعصب الإيديولوجي والعرقي والجنسي.

4. خاتمة:

عالجت هذه الورقة البحثية موضوع الأنساق الثقافية في رواية "الزنجية"، وقد أشرنا في عجالة إلى أن مفهوم النسق يعني كل مركب من أجزاء، وهذا ما وجدناه متجسدا في النص، فقد كانت الرواية حبلى بموضوعات كثيرة ومتنوعة، تأسيسا على ذلك تعددت الأنساق الثقافية فيها، ولأنها تصور حياة الأفارقة من جوانب عديدة، فقد توصلنا إلى نتائج أهمها:

- لقد عالجت الرواية التيمة الرئيسية، وهي الزنوجة أو كينونة الإنسان الأسود، عبر توظيف الشعر الزنجي كنسق ثقافي.
- إن علاقة الزنجي بالآخر تحكمه نظرة الدّونية، أو علاقة المركز بالتابع التي عمقتها الحقبة الكولونيالية.
- تجلّى النسق السياسي المتحكم في مصير الدول الإفريقية، كما عالجت النتائج المترتبة عنها، من إرهاب وتلوث وفقر وهجرة.
- كانت العادات والتقاليد التي تحكم المجتمع الإفريقي، حاضرة بسطوتها خاصة على المرأة كونها الأضعف ومتحكّم بها من طرف مؤسسة بأكملها.
- للمكان بعد دلالي ضدي في الرواية، حيث وردت الصحاري الإفريقية والمدن الجزائرية كثنائية، وقد كان فضاء انتمائيا أليفا تارة، ومعاديا موحشا تارة أخرى، حسب رؤية الشخصية وعلاقتها به.

الهوامش:

[i] أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكمرم ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مجلد 14، مادة (نسق)، د ط، 2003م، ص 15.

[ii] نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتشكيل الخطاب، عالم الكتاب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2006م، ص 39.

[iii] ضياء الكعبي: السرد العربي القديم-الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 14، 2005م، ص 22.

[iv] عبد الفتاح كيليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2001م، ص 08.

[v] ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2002م، ص 160.

[vi] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[vii] عبد الله عمر محمد الخطيب: النسيج اللغوي في رو ايات الطاهر وطار، أطروحة دكتوراه، إشراف د. شكري عزيز الماضي، الأردن، آب 2006م، ص32.

[viii] عائشة بنور: الزنجية، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، د ط، 2020م، ص 52.

[ix] الرو اية، ص 140-141.

[x] الرو اية، ص 160.

[xi] الرو اية، ص 19.

[xii] الرو اية، ص 71.

[xiii] الرو اية، ص 149.

[xiv] الرو اية، ص 163.

[xv] الرو اية، ص 21.

[xvi] الرو اية، ص 42-43.

[xvii] الرو اية، ص 149.

[xviii] الرو اية، ص 12.

[xix] الرو اية، ص 20.

[xx] الرو اية، ص 189.

[xxi] ياسين النصير: الرو اية والمكان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دط، دس، ص 17.

[xxii] الرو اية، ص 12.

[xxiii] الرو اية، ص 11.

[xxiv] الرو اية، ص 55.

[xxv] الرو اية، ص 104-105.

[xxvi] الرو اية، ص 161.

قائمة المصادر والمراجع:

أ-المصادر:

1- عائشة بنور: الزنجية، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، د ط، 2020م.

ب-المراجع:

1- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكمرم ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مجلد 14، مادة (نسق)، د ط، 2003م.

2- ضياء الكعبي: السرد العربي القديم-الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 14، 2005م.

3- عبد الفتاح كيليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2001م.

4- عبد الله عمر محمد الخطيب: النسيج اللغوي في رو ايات الطاهروطار، أطروحة دكتوراه، إشراف د. شكري عزيز الماضي، الأردن، آب 2006م.

5- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2002م.

6- نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتشكيل الخطاب، عالم الكتاب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2006م.

7- ياسين النصير: الرو اية والمكان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دط، دس.